قانون البلاغة

— ٥ —

فلما أفضي الشعر الى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الابيات من الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف ، فتكلفوا الاحتذاء عليها ، وسموها البديع فمن محسن ومسيء ، ومفرط ومقتصد ، وهو ينقسم اقساماً ويتشعب شعباً .

فمنها الطباق ، التجنيس ، الاستعارة ، المقابلة ، الارداف ، الموازنة ، المساواة ، الوحي والإشارة ، التذييل ، المبالغة ، الغلو ، الايغال ، التسهيم ، رد الكلام على صدره ، صحة التقسيم ، المماثلة ، الترصيع ، التكميل ، التكافؤ ، السلب والايجاب ، العكس والتبديل ، الكناية والتعريض ، الالتفات ، الاستدراك والرجوع ، التذييل ، الاستطراد ، التكرار ، الاستثناء ، التصحيف ، براعة الاستهلال ، براعة التخلص ، الترديد ، التتميم ، جمع المؤتلف والمختلف في بيت او بيتين ، المذهب الكلامي ، التفويف ، التفريع ، التسميط ، التصريع ، التضمين ، القسم ، الاعنات ، تجاهل العارف[1] ، هزل يراد به الجد .

فاما الطباق فهو ان يأتي الشاعر بالمعنى وضده ، اوما يقوم مقام الضد فيحسن جداً ، وله شُعبٌ خفية ، وشعاب غامضة ، وربما التبست به أشباه لاتبين الا للنظر الصائب والذهن الثاقب ، ومن اشهر أقسامه ماجرى مجرى قول زهير :

(ليث بعثّر[2] يصطاد الرجال اذا ما الليث كذب عن اقرانه صدقا)

وقال جرير :

(و باسط خير فيكم بيمينه وقابض شرٍ عنكم بشماليا)

وقول طفيل :

(يصان وهو ليوم الروع مبذول)

---

(١) في الحاشية وسماه صاحب المفتاح « سوق المعلوم الى غير المعلوم » .

(٢) عثّر كبَقّم مأسدة باليمن وقيل جبل بتبالة به مأسدة .

وقول دعبل :

(لا تعجبي يا سَلْمُ من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى)

وقول الآخر :

(خميص من التقوى بطين من الخمر)

وقد يجيء منه جنس آخر تكون المطابقة فيه بالنفي كقول البحتري :

(يقيض لي من حيث لا اعلم النوى ويسري اليَّ الشوق من حيث أعلم)

لما كان قوله لا اعلم كقوله اجهل ، وكان اجهل مطابقه ، كان الآخر بمثابته .

ومن أغرب الفاظه والطف ماوجد فيه قول ابو تمام الطائي :

(مها الوحش الا ان هاتا اوانسٌ قنا الخط الا ان تلك ذوابل)

فطابق بهاتا وتلك ، واحدهما للحاضر والآخر للغائب ، فكانا نقيضين في المعنى ، وبمنزلة الضدين . وسبيل الشاعر ان يتتبع فيه التقابل ، وان لا يجيء باسم مع فعل ، ولا بفعل مع اسم ، فان ذلك اذهب في الصنعة ، واسلم في البنية .

واما التجنيس(١) فهو ان يأتي الشاعر بلفظتين في البيت احداهما مشتقة من الاخرى يسمونه المطابق ، وهو اشهر أوصافه ، واكبر أصنافه ، نحو قول امرئ القيس :

(لقد طمح الطماح من بعد ارضه ليُلبِسَني من دائه ما تلبسا)

وقول الاعشى : وليل ابي ليلى امرؤٌ وأعاق

وقول زهير : كأن عيني وقد سال السليل بهم

وقول القطامي : مستحقبين فؤاداً ماله فاد .

وقول الشنفرى : بريحانة ريحت عشاراً وظلّتِ

وقول رؤبة : أحضرتَ اهل حضرموتَ مَوْتا

فجانس في موضعين في بيت رجز وقول جرير :

---

(١) وجد في هامش الاصل ما يلي : «سمى هذا وأخواته من الأمثلة اشتقاقاً لا تجنيساً والتجنيس أنواعه ثلاث عشرة وهي مرتبة في كتابي الموسوم بدرة التبيان في علمي المعاني والبيان» .

(فما زال معقولاً عقال عن الندى   وما زال محبوساً عن المجد حابس)

وقد يكون منه التجنيس المستوفي كقول ابي تمام :

(ما مات من كرم الزمان فانه   يحيي لدى يحيي بن عبد الله)

فجانس يحيي ويحيي لاختلاف المعنيين لان احدهما فعل والآخر اسم ولو اتفق المعنيان لم يعد تجنيساً . وكقول بشار :

(واني للثغر المخوف لكالئ   وللثغر يجري ظلمه لرشوف »

ومنه التجنيس الناقص كقول الأخنس بن شهاب :

(وحامي لواء قد قتلنا وحامل   لواءٍ منعنا والسيوف شوارع[1])

وقول ابن مقبل :

(يمشين مشي النقا مالت جوانبه   ينهال حيناً وينهاه الثرى حينا[2])

وقول ابي تمام :

(يمدون من ايدٍ عواصٍ عواصم   تصول بأسياف قواضٍ قواضب[3])

وقول البحتري :

(هل لما فات من تلاقٍ تلاف   ام لشاك من الصبابة شاف)

ومنه التجنيس المضاف كقول البحتري :

(أيا قمر التمام اعنت ظلما   عليّ تطاول الليل التمام)

فجانس بقمر التمام وليل التمام ، وكل واحد منهما موافق للآخر في المعنى ، ولكن احدهما صار مقترناً بالقمر والآخر بالليل ، وكانا كالمختلفين .

والتجنيس يزيد في رونق الشعر ، ويحلي عاطل معانيه ، وهو عنوان الفصاحة ، وشاهد الاتساع في اللغة ، ودليل على توقد الذكاء ، وجودة الذهن ، ومسابقة الخاطر . واما الاستعارة ففي نقل الكلمة عن شيء قد وضعت له الى شيء لم توضع له .

---

(١) في الاصل : ليس هذا التجنيس الناقص بل هو التجنيس المطرف .

(٢) في الاصل : هذا تجنيس ناقص فانه كالتام الا في الاعراب .

(٣) في الاصل : ما هو التجنيس الناقص بل هو التجنيس الزائد .

ولا تكون الاستعارة واقعة حتى تكون اللفظة المستعارة في الموضع الذي استعيرت له أبلغ من الحقيقة .

واستعارات الشعراء جمة ، ومحاسنهم فيها كثيرة ، ومذاهب المحدثين فيها خاصة طريفة ، فمنها قول زهير : وعُرّي أفراس الصبا ورواحله

وقول لبيد : إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ابن الطثرية :

(أخذنا باطراف الاحاديث بيننا وسالت باعناق المطي الأباطح)

وقول جرير :

(تحيي الروامس ربعها فتجدّه بعد البِلى وتميته الأمطار)

وهذا البيت يجمع لطف الاستعارة ، وشرف الطباق ، لانه جاء فيه بالاحياء والاماتة ، والجدة والبلى . يستحسن من الاشعار مثل قول ابي حية :

(وليلة مَرِضَت من كل ناحية فما يضيء بها نجم ولا قمرُ)

واما المقابلة فهي ان يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بينها ، فيأتي في الموافق بما يوافق ، وفي المخالف بما يخالف على الصحة ، او يشترط شروطاً في احد المعنيين ، فيأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه ، وفيما يخالفه باضداد ذلك ، كقول الجعدي :

(فتى كان فيه ما يسرّ صديقه على ان فيه ما يسوء الاعاديا)

وقول تأبط شراً :

(اهزّ به في ندوة الحيّ عطفه كما هزّ عطفي بالهجان الاوارك)

وكقول آخر :

(ايا عجباً كيف اتفقنا فناصح وفيٌّ ومطويٌّ على الغل غادر)

فجعل بإزاء ناصح مطوياً على الغلّ وبإزاء وفيٍّ غادراً . وقد ذهب بعض الناس على ان هذا طباق ، وليس هذا كما ذهب اليه ، وان كان مناسباً له ؛ واما الإرداف وفي الهامش وسمي تتبيعاً فهو ان يريد الشاعر دلالة على معنىً فلا يأتي باللفظ الدال عليه بل بلفظ هو تابع له وردف كقوله :

(بعيدة مهوى القرط اما لنوفل ابوها واما عبد شمس وهاشم)

وانما : أراد ان يصف طول جيدها فأتى بردفه ، وهو بعد مهوى القرط وكقول امريء القيس :

(ويضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل)

انما أراد ان يذكر ترفة[1] هذه المرأة ، وان لها من يكفيها ، فلم يذكر ذلك وعدل الى ذكر فتيت المسك الذي يدل على انها منعمة ، وانها في خفض من العيش وترفه ، وقد يسمى التتبيع ايضاً .

واما الموازنة فهي ان تكون الالفاظ متعادلة الأوزان ، متوالية الاجزاء ، كقول امريء القيس : (سليم الشظى[2] عبل الشوا[3] شنج النسا[4])

وقول ابي داود :

(بعيد مطى[5] الطرف خاظي البضيع[6] ممر المطا سمهري العصب[7])

واما المساواة فهي ان يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه كقول زهير :

(ومهما يكن عند امريء من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تعلم)

وكقوله :

(فلو شاء قومي كان حلمي فيهم وكان على جهال اعدائهم جهلي)

وكقول الآخر :

(اذا انت لم تقصر عن الجهل والخنا أصبت حليماً او أصابك جاهل)

ومساواة اللفظ بالمعنى هو الامر المتوسط بين الايجاز والاسهاب .

---

(١) الترفة بضم التاء كغرفة النعمة . (٢) الشظى عظيم مستدق لازق بالوظيف اي عظم الساق . (٣) ما كان غير مقتل من الاعضاء والعبل الغليظ . (٤) يقال فرس شنج النسا متقلصه وهو مدح له لانه اذا تقبض نساه وشنج لم تسترخ رجلاه . (٥) في هامش الاصل : هذا البيت لا مدخل له بمثل صنعة الموازنة الا في قوله « بعيد مطى وممر المطا » والباقي لا يعد من التوازن . (٦) خاظي البضيع ممتلئ اللحم . والمطى المدى . (٧) المطى حبل الظهر وامر الحبل فتله فتلاً شديداً فهو ممر . وعصب سمهري شديد الفتل .

واما الاشارة فهي اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة كاللمحة الدالة على المراد ، كقول امرئ القيس :

(فظل لنا يوم لذيذ بنعمة فقل في مقيل نحسه متغيّب)

وكقوله : (على هيكل يعطيك قبل سؤاله افانين جري غير كزّ ولا واني)

فقد جمع بين قوله افانين جري ما لو عدّ لتطاول اللفظ به ، وجمع بقوله قبل سؤاله أوصاف العتق والجودة في هذا الفرس ، ويريد انه يذهب في الافانين طوعاً من غير حث . في قوله غير كزّ ولا واني : نفى عنه ان يكون معه الكزازة من قبل الجماح والمنازعة ، والونى من قبل الاسترخاء والفترة . وكقول الآخر :

(هاج ذا القلب من تذكر جمل ما يهيج المتيم المحزونا)

فقد أشار بقوله ما يهيج المتيم المحزونا الى ضروب من أوصاف المتيم يتسع فيها نطاق الكلام وتفسح معها مسارب الظلام .

واما المبالغة فهي ان تذكر معنىً ما لو اقتصر عليه لكان كافياً فيما قصد له ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكد معانيه ، ويعتمد المبالغة فيه كقوله :

(ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا)

فإكرامهم الجار ما كان فيهم من الأخلاق الجميلة الموصوفة ، واتباعهم إياه بالكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل . وكقول الخضريّ :

(وأقبح من قرد وأبخل بالقرى من الكلب امسى وهو غرثان اعجف)

فقد كان يجزيْ في الذم ان يكون هذا المهجوّ أبخل من الكلب ، فلم يرض حتى يكون غرثان أعجف . وكقول الآخر :

(وانا لنعطي النصف منا واننا لنأخذه من كل أبلخ[1] ظالم)

فالتوكيد في قوله واننا لنأخذه ثم قال : من كل أبلخ ثم قال : ظالم فهذه مبالغات مضاعفة مكررة .

واما الغلوّ فكقول قيس بن الخطيم :

(١) متكبر .

(طعنتُ ابن عبد القيس طعنة ثائر   لها نفذ لولا الشعاع أضاءها)
(ملكت بها كفي فانهرت فتقها   يرى قائم من دونها ما وراءها)

وبلغني ان شعبة بن الحجاج قال لما أُنشد البيتين هذا لم يطعنه انما فتح دربان[١] .

وكقول النمر بن تولب العكلي :

(أبقى الحوادث والايام من نمر   أسباد سيف قديم أثره بادي)
(فظل يحفر[٢] عنه ان ضربت به   بعد الذراعين والساقين والهادي)

وكقول ابي نواس :

(توهمتها في كأسها فكأنما   توهمت شيئاً ليس يدركه العقل)
(فما يرتقي التكييف منها الى مدى   يحدُّ به الا ومن قبله قبل)

ومن الشعراء من يستثني عند الغلو او يظهر[٣] (بكاد) و (لولا) فيدرك مراده ويسلم من قبح الغلو وهجنة الافراط . مثل قول العرجي :

(ولهن بالبيت العتيق أُبانة   والبيت يعرفهن لو يتكلم)

واما الايغال فهو ان يوغل بالقافية في الوصف ويؤكد التشبيه بها ، والمعنى قد يستقل دونها ، وانما يأتي بها لحاجة الشعر في ان يكون شعراً اليها ، فيزيد معناها في تجويد ما ذكره ، فيبلغ في المعنى الى الغاية القصوى في الاحسان والجودة ، كقول امرئ القيس :

(كأن عيون الوحش حول خبائنا   وأرحلنا الجزع الذي لم يثقب)

فقد اتى على التشبيه قبل القافية ، وذلك ان عيون الوحش اذا ماتت اشبهت الجزع ، ثم لما جاء بالقافية بلغ بالمعنى الأمد البعيد في التأكيد ، لان تشبيه عيون الوحش بالجزع الذي لم يثقب أدخل في التشبيه ، واذا لم يثقب كان أحسن في صفائه ، واشد في ترقرق مائه وكقوله :

(اذا ما جرى شأوين وابتل عطفه   تقول هزيز الريح مرت بأثأب[٤])

---

(١) اي دربند وهو الباب (فارسية) . (٢) لعل صوابه يحفز بالزاي المعجمة .
(٣) لعله يستظهر . (٤) الأثأب شجر ينبت في بطون الاودية في البادية الواحدة أثابة .

فقد تم الوصف والتشبيه قبل القافية ، فلما اتى بالقافية زاد المعنى نصاعة و براعة ، وذلك ان الأثآب شجر يكون للريح في أضعاف أغصانه حفيف شديد ، وقال زهير :

(كأن فتات العهن في كل منزل نزلن به حب القنا [1] لم يُحطَّم)

فقد اتى بالتشبيه قبل القافية ثم قال : لم يحطّم لانه اذا حُطّم كان داخله ابيض فلم يشبه العهن وهو الصوف الاحمر . وقال آخر :

(حملت ردينياً كأن سنانه سنا لهب لم يتصل بدخان)

فأكد بقوله لم يتصل بدخان .

واما التسهيم فهو ان يصوغ الشاعر الفاظه مستوية الاقسام ، معتدلة النظام ، لا يزيد جزء على جزء تقتضي كل كلمة اختها ، وكل لفظة شكلها ، فاذا كان الشعر على هذه الصيغة سبق السامع الى قوافيه ، قبل ان ينتهي اليها راويه ، حتى لو سمع سامع الشطر الاول ، استخرج الشطر الآخر ، من غير ان يكون قد سمعه . كقول البحتري :

(فاذا حاربوا أذلوا عزيزاً)

يقتضي ان يكون تمامه : (واذا سالموا أعزوا ذليلاً)

وكقوله :

(أحلت دمي من غير جرم وحرمت بلا سبب يوم اللقاء كلامي)

(فليس الذي حللته بمحلل)

يجب ان يكون تمامه : (وليس الذي حرمته بحرام)

« للبحث صلة »

---

(١) القنا بكسر القاف الكباسة وهو من النخل كالعنقود من العنب .